

العلامة السيد (ابو عدنان) مسؤوليات المعمومين وكيف نقتدي بهم

نظرة في دور المعموم وحركته:

إن للمعموم دوراً يُنطّ به في واقع الأمة، يتماشى وما عليه من الكمال.

ومن حقنا أن نسأل: من هو المعموم الذي قدمته السماء ليكون القدوة التي تسير البشرية على نهجها، وفقاً لمعطيات هديها؟

إنه النبي (ص) ووصيه الإمام المعموم (ع). فما مننبي إلا وهو يحمل هذا المشعل، وما من وصي إلا ويستتبع مسيرة النبي (ص).

وثمة عامل آخر يتدخل في تلك المحطات، فمسؤولية الأنبياء (ع) ورسالتهم هي هداية البشر. والإنسان بطبيعة الأول جُبل على الحب. والحب من النعم الكبرى على الإنسان، فالحب يعيش الوجود فيتعلق به. وبالحب يجذب للمكاسب الدنيوية فيندفع وراءها، تحقيقاً لرغبة السماء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيْدَكَ مِنَ الدُّرْزِيَّاتِ﴾^[31].

وبالحب ينشد المرء الحقيقة، وطريقها العلم، فالإنسان الراشد يُجهد نفسه أن يمسك بأسباب العلم والمعارف، ليستكشف ما هو مستتر من الحقائق. وبالحب تسعد الأسرة والمجتمع والأمة.

والنعم المعنوية كثيرة، بل هي أكثر من أن تعدّ وتحصى، لكن الإنسان لا يستشعر منها إلا النعمة المادية ذات التجسد الخارجي، حال أن النعم المعنوية أكثر أهمية، وأشد خطراً من النعم المادية إذا ما سُلبت. فمن السهل على الإنسان أن يجمع الكثير من حطام الدنيا، ثم يذهب منه، فيعيده الكرة ثانية فيسترجع ما ذهب من يده. فربما يفقد المرء شريكة عمره، وقد يستطيع أن يعوض، وأن يستبدلها الله تعالى خيراً منها. وكذلك الأولاد، وهي نعمة كبرى على الإنسان، لكنه قد يبتلى بفقد أحد أبنائه لا قدر الله، فينجذب غيرهم إذا ما أعطى فسحة في الأجل، وربما كان الأبناء الجدد على درجة من القابلية بدرجة أكبر من اختار الله لهم دار المقاومة عنده.

كل هذا في مجال النعم المادية، أما النعم التي يكسوها طابع المعنى، فهي تلك التي تتحرك معنا حيثما كنا، من حيث نلتفت أو لا نلتفت.

ومن تلك النعم التي لا نستشعرها في كثير من الأحيان، أن يولد الإنسان على الفطرة مسلماً مؤمناً، فتلك نعمة كبرى، كان الأساس فيها عالماً مادياً، لكنها كثمرة نهائية لطف إلهي، ونعمة معنوية. يقول الشاعر:

لا عذّـ بـ إـ أمـيـ إـ نـهـاـ شـربـ حـبـ الـوـصـيـ وـغـذـنـيـهـ بـالـلـبـنـ

وكان لي والـدـ يـهـوـيـ أـبـاـ حـسـنـ فـصـرـتـ مـنـ ذـيـ وـذـاـ أـهـوـيـ أـبـاـ حـسـنـ

فالولاء لمحمد وآل محمد (ع) والتزام نهج الإسلام الذي جاؤوا به خالصاً نقياً، من النعم الكبرى التي قد لا نستشعر إلا بعض جوانبها، حال أنها المراقبة لنا في هذه الدار التي نعيشها، وبها تميّز على غيرنا، بأزماً من أتباع هذه الرسالة الحقة الخاتمة للرسالات.

وكذلك في الآخرة عندما نفذ على الله تعالى، وتُطرح الموازين القسط للناس، فتأتي الأمم بما تأتي به، ويأتي أتباع دين النبي (ص) بما امثلوا من معطيات تلك الرسالة من جهة، وما حملوا في داخلهم وما احتضنوا من الحب لمحمد وآل محمد (ص).

وطائف ومسؤوليات المعصومين:

لقد أرسل الله تعالى الأنبياء والرسل، وأردهم بالأولياء والأوصياء، ثم جعل من العلماء حراساً في فترة الغيبة الكبرى على مقدرات الأمة في جانبها المعنوي. فحركة الأنبياء والرسل والأولياء موجهة باتجاه هدف سامي جداً، ومنه:

1 - حفظ العهد والوفاء به: فيبعد أن يُحْفَظ للإنسان المعتقد الذي التزم به، وبما يترتب عليه، تكفل أن يكون معه في ذلك الموطن، فما وُجد إنسان على وجه الأرض، إلا وقد أُخذ العهد عليه من قبل السماء، في عوالم تقدم هذا العالم الحسي المادي، أي عالم الشهود الخارجي. وما من إنسان إلا ويتقلب في عوالم حتى يصل إلى هذا العالم الذي تتجسد فيه الأفعال، وفق الحركة التي تصدر منا بسبب الバاعث والمحرك الذي لا يعود واحده من دوائر خمس، فإما أن يكون واجباً مُلزماً، وإما محراً، وإما

مستحبًاً أو مكروهاً أو في دائرة الإباحة المطلقة.

أما العهد الذي أُخذ على الإنسان في اليوم الأول، فهو أن يؤمن بما سبّاه وتعالى ربّه، وبالنبي محمد (ص) وبالمعصومين أئمّة وقادّة. وهذا العهد يصحّ للإنسان منذ تكوينه الأول قبل هذا العالم عندما يولد، ثم يتقدّم في طي السنين حتّى يصل مرحلة التكليف، وبذلك يدخل في مرحلة المسؤولية عن الوفاء بذلك العهد. وقد أرسّل الله تعالى الأنبياء ليذكروا الناس بالعهد، من خلال ما انطوت عليه رسالاتهم، بأن هناك عهداً أُخذ على بني آدم، لا بدّ من الوفاء به.

إن الشريعة الإسلامية تُقدّم التكاليف الشرعية، فإن التزم بها المكلّف وفي بالعهد، وإن تخلف عنها ضيع العهد.

فالملتب الأول للأنبياء والرسل والأولياء، هو أن يفي الناس بعهدهم، وتارة يكون هذا من خلال الرسالة كتاباً، كالتوراة والإنجيل والزبور والمصحف، ثم خاتمة الكتب وأفضلها، القرآن الكريم، المنزل على قلب الحبيب المصطفى محمد (ص)، وأخرى يكون بغير ذلك.

ثم يتقدّم الأنبياء والرسل وترْطُّبوا صفحاتهم، لتأتي صفحة الولاية، التي تمثل العصمة، فالمعصوم (ع) معصوم في نفسه، وعاصم لمن سار على نهجه.

ويدل على عصمتهم الآيات الكثيرة في هذا المجال، ومنها: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيرًا﴾ [41]. وكذلك الروايات والأحاديث الشريفة، وهي أكثر من أن تعدّ وتحصي، ومنها: «علي مني وأنا منه، ولا يؤديعني إلا أنا أو علي» [151]. ولو لم يكن علي (ع) بمثابة النبي (ص) إلا فيما استثنى، لما كان من النبي (ص) وهو منه. وما هو متمثل في ذات علي (ع) وينتفق مع ما هو متمثل في ذات النبي (ص) العصمة، فلو كان النبي معصوماً، وعلى لا يتمتع بهذه الصفة، لما جاز للنبي (ص) أن يقول ذلك.

لقد أغدق الأئمة (ع) على البشرية سيلًاً من النصوص النورانية التي تأخذ بالإنسان صوب النجاح الأكبر والفلاح الأعظم، وقد تكفلت هذه النصوص بالربط بين الإنسان والمطلق، وهو الله سبحانه وتعالى من جهة، كما تكفلت بتشديد الميثاق والعهد مع أهل الميثاق والعهد، وهم الأنبياء والرسل، ثم ركزت بشكل لا يقبل التردد والتوقف والتأمل فيما ينبغي أن يكون بين الإنسان بما هو إنسان، وبين الإنسان المعصوم، المتمثل بالإمام، وهم علي والحسن والحسين والمعصومون من ذرية الحسين حتى الخلف الباقي من آل محمد

2 - تذكير الناس بالنعم: فإن الأنبياء والرسل جاؤوا ليذكّروا الناس بالنعم التي أفاضها الله تعالى على البشر، ما تمظهر منها بالجانب المادي الظاهري، أو ما أخذ شكلًاً معنويًاً. فحتى النعم المادية لا تستشعر أهميتها في الكثير من الأحابيين، إلى أن تذهب من بين أيدينا، وأسئلته تعالى أن لا يسلب أحدًاً نعمهً أنعمها عليه، وإن لم يؤدّ شكرها، أو وظفها في غير ما أراد الله سبحانه وتعالى أن توظف فيه.

فنعمة البصر مثلاً من النعم العظيمة، ومن يمتلك البصر يقضي جميع حواجه وماربه، ويصل حيث يريد، فلو أنه فقد هذه النعمة بشكل مفاجئ، تلمس ما لها من قيمة وأثر في حياته، وهكذا سائر النعم.

إلا أن الإنسان مهما فقد من النعم المادية فذلك دون فقدان النعمة المعنوية، لأن فقدانها خسارة كبيرة في الدنيا والآخرة، إذ إنه يمكن أن يفدي على الله سبحانه وتعالى وهو فقد لإحدى النعم الظاهرة، كالسمع أو البصر أو غيرهما، ولا يقدم ذلك ولا يؤخر في ثقل الميزان يوم القيمة، لكنه عندما يخرج من الدنيا، وقد سُلب سيدة النعم، وهي الاعتقاد بمحمد وآل محمد (ع) فذلك هو الخسران المبين.

فمن الأحاديث الشريفة التي تدلنا على ما للولاية من أثر وتأثير، في جانب مختصر من ذلك، قول النبي (ص): «أشقل ما يوضع في الميزان يوم القيمة الصلاة على محمد وعلى أهل بيته»[\(161\)](#). هذا أثر من آثار الولاية، فكيف بالولاية العظمى المتمثلة في علي وآل علي (ع)؟

3 - إتمام الحجة على البشر: بمعنى أن الله سبحانه وتعالى لم يدع البشر وشأنهم، لعلمه السابق أن الإنسان مهما أوتي من المدركات والقوى العقلية يبقى في دائرة النقص، لذلك يحتاج إلى مرشد، وإلى علاقة بالمرشد، وهي الحب.

فالحب نعمة أيضًاً، ولكن يكتنفها في الكثير من الأحابيين جانبان من النعمة، إذا ما وُظفت في غير ما وضعت له: الأول التقصير والتغريب، وهذه رذيلة، والثانية هو الإفراط، فقد قالت العرب: ومن الحب ما قتل، فقد لا يرى المحب إلا من أحب، ولا يستمع إلا إليه، ولا يترك مجالًاً إلا لمن يتصرف بحب المحبوب.

4 - تفجير طاقات الإنسان الكامنة: إن الإنسان فيه مستودع ضخم من المعادن والجواهر الخاصة المكتنزة في داخله، وقد بُعث الأنبياء والرسل، ومن بعدهم الأولياء، لاستكشاف هذه المكتنونات. يقول الشاعر:

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبرُ

أي لا تنظر إلى حيئاتك بلحاظ الكون من حولك، إنما عليك أن تقلب وجه المرأة، لتنظر إلى الكون من خلال نفسك، وسوف تجد أنك مظهر لجوانب هذا الكون بأجمعه. لذا يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّ مِنَّا بَذْرِيْ آدَمَ﴾ (171)، وكان تكرييناً بأن منْ إِنْ سُبَّاهُ وَتَعَالَى عَلَيْنَا بِالنِّعْمَةِ الْكَبِيرِ، وهي الهدایة، ولولا هذه المسيرة الطويلة من عطاء الرسل والأنبياء والأولياء، لما تحقق لنا، كما أن الطريق لم يكن مفروشاً بالورود أمامهم، إنما اكتنفته الكثير من المصاعب والمشاقّ. وتتفاوت المراتب بين الأنبياء، فبقدر ما قدموا كانت المصاعب والأذى، حتى قال النبي الأعظم محمد (ص): «ما أؤذىنبي مثل ما أؤذيت» (181). ذلك لأن جميع الأنبياء تعرضوا للأذى في حياتهم فقط، فمنهم من نشر بالمناسير، ومنهم من صُلب، ومنهم من قُطِّع، ثم انتهى كل شيء، بل إن بعض الأنبياء تدخلت السماء لرفعه من الأرض وتخليمه مما هو فيه، كما هو الحال مع السيد المسيح (ع)، أما النبي الأعظم (ص) فلم يقف الأذى الشخصي في حدود حياته فقط، إنما تعلق به حتى بعد وفاته، فنحن نعتقد أن الأنبياء والرسل أحياء عند ربهم يرزقون، فما من حدث مرويٍّ جرى على أحد من أهل بيت النبوة، إلا وهو لون من ألوان الأذى الموجّه لقلب النبي (ص) وروحه الطاهرة، وهو في ذلك العالم، بل لا زالت الكثير من ألوان الأذى توجه اليوم إلى النبي الأعظم (ص) وهذا هو معتقدنا، فالنبي (ص) يرقب حركة الأمة ويتابع جميع الأقوال والأفعال، فالحسن منها يُدخل على قلبه السرور، والسيء يدخل عليه الحزن. وهنا تكمن المفارقة بين من يحمل السرور لقلب من أحب، ومن يحمل له الأذى.

5 - تبليغ رسالات إِنْ: تعد مهمة التبليغ واحدة من أخطر مهام الإنسان على وجه الأرض، ولم يكن طريقها سهلاً، إنما كان في منتهى التعقيد، وقد قام الأنبياء والأئمة (ع) بأداء مسؤولية التبليغ، ومن هؤلاء الإمامان اللذان نحيي ذكرهما الليلة، فرغم الظروف الصعبة المعقدة الحساسة التي عاشها الأئمة (ع)، إلا أنهم لم يخلوا عن دور التبليغ وبيان الأحكام. لذلك نقف اليوم أمام رصيد كبير، وسيل من السنة المطهرة الصادرة عن آل بيت النبوة على لسان الإمام الباقر (ع) ودونها الخلاص من أصحابه، وكان لها الأثر في تأسيس مدرسة الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع)، ولا يمكن أن نتصور مذهبًا جعفريًا إذا ما انتزعنا مفردة الإمام الباقر (ع) في التأسيس. ففي زمانه وضعت قواعد البناء، فيما رفع الإمام الصادق (ع) تلك القواعد، ثم بني سقفها فاستقرت.

وكذلك الإمام الهادي (ع) الذي قام بدور في منتهي الكمال، على أن الخطورة كانت تلته من جميع الجوانب. فمع أن المدارس الأخرى كانت تعرف بعلوّ كعبه وتقديمه في المعرفة، وأنه صحيفة بيضاء ليس فيها نكتة سوداء، إلا أنه تحمل ما تحمل.

تصوروا أنه يستدعى في منتصف الليل، ولكن بأية حالة؟! وكيف نتصور حال الطالم وهو يرسل لأحد معارضيه؟ هل يستقدمه ويستقبله بالحفاوة والتكريم؟

لقد أُشخص من بيته بأسوأ حال، حيث داهمه رجال الشرطة، فأخذوه على الحال الذي هو عليه، حاسر الرأس، حافي القدمين! وكان يُسحب في بعض الحالات سحباً، وفي بعض النصوص أنه كان يُدفع دفعاً.

كيف نقتدي بأئمتنا؟

إن أئمتنا (ع) لم يجلسوا كما يجلس غيرهم على فراش الفتوى والقضاء، تجرب لهم الطيبات من هنا وهناك، إنما تحملوا الكثير من الأذى والحيف، لكنهم صبروا من أجلنا نحن، وضحوا من أجلنا ليخرجونا من ظلمات الجهل إلى نور الهدى، فمن حقهم علينا أن لا نهدر أوقاتنا إلا في محبتهم والسير على طريقهم، وتهجي المفردات الصادرة عنهم؛ لتمثل مشاعل نور نستضيء بها في عالم الظلمة الذي نعيشه هذه الأيام، فهناك مشاريع خطيرة جداً لاختطاف أبناءنا من حطيرتنا، وهم أيتام آل محمد (ع) فهل نقف موقف المتفرج؟

أليس من الواجب علينا أن نتابع أبناءنا؟ وأن نعيد النظر مرة تلو الأخرى، وأن نعيش معهم إذا ما تقدم بهم العمر قليلاً كأصدقاء، فنكون قريبين منهم؟ فالولد لا يفتش عن الصديق خارج البيت إلا إذا فقد الصديق داخله، فإن كان الأب لا يعيش الأبناء كما يرغبون أن يعيشهم، فلا شك أنهم سوف يبحثون عن البديل. فعلى الأب أن يستشعر المسؤولية.

في الحديث الشريف: «من كان عنده صبيٌ فـلْ يـتـصـابـ له»⁹¹ . وكان نبي الرحمة، الرسول الأعظم (ع) يتعامل مع الحسن والحسين (ع) بهذه الروحية.

فعلينا - أيها الأحبة - أن نعيش أبناءنا كأصدقاء، لنصل بهم إلى ما وصلنا إليه، ونقدم لهم المساعدة ليصلوا إلى أفضل مما نحن فيه.

ومن مظاهر التبليغ سيراً على خطى المعصومين اتباع العلماء، فمن مسؤولية العلماء الحفاظ على هذا الموروث، فإن نهض العالم بمسؤولياته وقام بدوره أخذ المجتمع معه إلى حيث الكمال، وإن تخلى عن مسؤولياته وأسقط دوره فقد أسقط المجتمع من ورائه. فالعلماء أمناء على الأمة.

وربما يقع العالم في خطأ، إلا أنه لن يقف في حدود دائرة الخطأ، وقد سمعتم وسمعنا، وقرأتم وقرأنا الحديث: «زلة العالم تفسد العالم»[\[10\]](#) . فزلة غير العالم تبقى في حدود زلته، لكن أن يقع العالم في الزلل والخطأ، فهذا يعني أن مجتمعاً كاملاً سوف يقع معه.

ولنا أن نسأل: هل من حقنا أن ننبه ونستوضح ونستدرك ونعقب ونسائل، أو ليس من حقنا ذلك لأنهم علماء؟

الجواب: إن العلم لا يعني العصمة، وهذا المبدأ من عدم الرد والاعتراض لا يكون إلا مع المعصومين (ع) أما العالم، أيّاً كان، فما دامت الرؤية غير واضحة، والعبارة غير بينة، فمن الأمانة والنهوض بالتكليف أن نسأل العالم: لماذا حصل ما حصل، وجرى ما جرى، ووقع ما وقع؟ فالسؤال سبيل النجاة، والتخلي عنه مردأة.

يقول لقمان الحكيم لابنه: يابني، زاحم العلماء بركتيك[\[11\]](#) . وهذه كناية عن كثرة المجالسة والسؤال.

وبطبيعة الحال أن هؤلاء العلماء إذا ما نهضوا تركوا آثاراً بيّنة واضحة اختصرها بما يلي:

1 - بيان أقصر الطرق إلى الله سبحانه وتعالى، وهي معرفة محمد وآل محمد (ع) بعد أن نعرف كيف نسير على هديهم، فقد نهض أئمتنا بالتكليف وعلينا أن نهض به أيضاً . وهو على قسمين، عباديّ ومعا ملي، فعلينا أن نحكي فعل المعصومين في العبادة والمعاملة.

2 - بيان التكاليف الشرعية، فبعض الناس قد لا يعرف التكليف، ثم يلتفت بعد عشر سنوات أنه لا يعرف، فيبدأ بالتحصيغ. فالخسارة تقع على المكلف في نهاية المطاف، لأنه لم يستخدم المفتاح، وهو السؤال. فلا بد إذن من الإفادة قدر الإمكان من رجل الدين، بالإلحاح عليه بالسؤال، واغتنام الفرصة، فرجال الدين اليوم بحمد الله كثيرون، ولا تكاد مدينة في المملكة تخلو من هذه الطلائع المؤمنة الرسالية المحبة التي هيأت مثل هذه المجالس، وهي نعمة كبيرة علينا. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على وجود الرغبة الجادة في السير على منهج أهل البيت (ع).

لاحظوا أن الأئمة (ع) لما أُشخصوا من المدينة إلى الكوفة أصبحت حوزة كبرى، ولما أُشخصوا إلى بغداد تحولت إلى منارة علم، ولما أُشخصوا إلى سر من رأى تسييد المدينة مدارس العلم والحكمة، وأُشخصوا الإمام الرضا إلى أبعد الأقطار آنذاك، فتحولت تلك البقعة المشرفة إلى منارة علم ومعرفة وبحث وتحقيق

وتحتاج منها كبار العلماء.

فأنتم - أيها الأحبة - مشاريع صغيرة يمكن أن نصيّرها مشاريع كبرى.

نُسأّل الله سبحانه وتعالى أن يؤمنّن لنا من خلال رصف معالم الطريق الموصى إلى النهاية المطلوبة، فأئمنّنا (ع) عظماء، قدّموا الكثير ولم يخلوا بشيء، وعلينا أن لا ندخل أن نتعرّف حقائق ذواتهم.

نُسأّل الله سبحانه وتعالى أن يكتب لي ولهم التوفيق أن نتعرّف عليهم ونتمسّك بهم ونسير على هديهم أكثر فأكثر، وأن يجمعنا وإياكم في القادر من الأيام على مثل هذا وأفضل إن شاء الله، وأن يرزقنا وإياكم في الآخرة شرف النظر إلى وجه النبي الأعظم محمد (ص) والمعصومين (ع) ومنهم الخاتم الإمام المهدي (عج).

والحمد لله رب العالمين.